مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ١٣: ٧-١٦)

يا إخوةُ اذكرُوا مدبِّريكم الذينَ كلَّموكم بكلمةِ الله. تأمَّلوا في عاقِبَةِ تصرُّفهم واقتَدوا بإيمانِهم* إنَّ يسوعَ المسيحَ هو هو أمسِ واليومَ وإلى مدى الدهر* لا تنقادوا لتعاليمَ متنوِّعَةٍ غريبة. فإنَّه يَحسُنُ أن يُثبَّتَ القلبُ بالنعمة لا بالأطعمةِ التي لم ينتفعِ الذينَ تعاطَوْها* إنَّ لنا مذبحاً لا سُلطانَ للذينَ يخدُمونَ المسكِنَ أن يأكلوا منه* لأنَّ الحيواناتِ التي يُدخَلُ بدمِها عن الخطيئةِ إلى الأقداسِ بيدِ رئيسِ الكهنةِ تُحرَقُ أجسامُها خارجَ المحلَّة* فلذلك يسوعُ أيضاً تألَّمَ خارجَ البابِ ليقدِّسَ الشعبَ بدمِ نفسه* فلنخرُجْ إذاً إليه إلى خارجِ المحلَّةِ حامِلينَ

القديس كيرلُس الإسكندري

نعيِّد في مِثل هذا اليوم للقديس كيرلس الإسكندري الذي عاش بين عامي ٣٧٨ و٤٤٤ والذي واجه بسالة الهرطقات الكثيرة التي كانت تحارب الكنيسة وإيمانها المستقيم في ذلك العصر. ويُشهَد للقديس كيرلس الذي تعمّق في دراسة الكتاب المقدس وتقليد الكنيسة القديم انه أطلق بشكل واسع الأسلوب اللاهوتي المسيحي الذي يعتمد على كتابات الآباء السابقة لتحديد تقليد الكنيسة.

القديس كيرلُس الإسكندري هو أحد لاهوتيي الكنيسة الذين امتازوا بعمق أفكارهم ودقتها خاصة انه عاش في حقبة تطلّبت انتباهاً كبيراً في اختيار المصطلحات اللاهوتية المسيحية لأن هذه لم تكن قد حُدِّدت بعد كما هي اليوم وبالتالي أي مصطلح يُستخدم بشكل خاطئ أو غير واضح ممكن أن يؤدي إلى سوء فهم للإيمان أو حتى إلى هرطقة.

أكثر ما دافع عنه القديس كيرلس في وجه الهرطقات كان موضوع العقائد الخريستولوجية التي تتعلّق بشخص المسيح واتحاد الطبيعتين الإلهية والبشرية في شخصه. لقد اعتبر كيرلُس ان التجسد هو «تدبير إلهي» لكي يعطينا الله حياة جديدة وذلك عبر اتحاد الله بالإنسان في شخص يسوع المسيح. في التجسد اختبر الله كل ما هو في طبيعتنا ما عدا الخطيئة ليحوّل المائت إلى خالد. هذا التحوّل تكلّم عنه آباء قديسون قبل كيرلُس مثل القديسَين إيريناوس وأثناسيوس اللذين تحدثا عن التألُّه: «لقد أصبح الإله إنساناً لكي يستطيع الإنسان أن يصير إلهاً». هذا ما عناه أيضاً القديس كيرلُس بقوله: «ما كان هو (أي الله) عليه بالطبيعة، نصيره نحن بالنعمة». بتجسده أعطى الكلمة كنيستَه أسلوباً جديداً للوجود. قبل التجسّد كانت كلمتا «إلهي» و«إنساني» تعنيان طريقتين مختلفتين للوجود يستحيل الجمع بينهما، لكن مع التجسّد تبرهنت إمكانية اتحادهما في المسيح.

العدد ٢٠٠٩/٣

الأحد ١٨ كانون الثاني

تذكار أبوينا الجليلين في القديسين أثناسيوس وكيرلُس رئيسي أساقفة الإسكندرية

اللحن السادس

إنجيل السَحَر التاسع

عارهُ* لأنَّه ليس لنا ههنا مدينةٌ باقيةٌ بل نطلبُ الآتيةَ* فلنقرِّبْ به إذاً ذبيحةَ التسبيحِ كلَّ حينٍ وهي ثمرُ شفاهٍ معترفةٍ لاسمه* لا تَنسَوْا الإحسانَ والمؤاساةَ فإنَّ اللهَ يرتضي مثلَ هذه الذبائح.

الإنجيل

(لوقا ١٧: ١٢-١٩)

في ذلك الزمان فيما يسوعُ داخلٌ إلى قريةٍ استقبلهُ عَشْرَةُ رجالٍ بُرصٍ ووقفوا من بعيدٍ* ورفعوا أصواتَهم قائلين يا يسوعُ المعلّمُ ارحمنا. فلمَّا رآهم قال لهم امْضوا وأروا الكهنةَ أنفسَكم. وفيما هم منطلِقون طَهُروا* وإنَّ واحداً منهم لمَّا رأى أنَّهُ قد بَرِئَ رَجَعَ يُمجّدُ اللهَ بصوتٍ عظيم* وخرَّ على وجههِ عند قَدَمَيْهِ شاكراً له وكان سامريًّا* فأجابَ يسوعُ وقالَ أليسَ العَشْرَةُ قد طهُروا فأين التِسْعةُ* ألم يوجَدْ مَن يرجِعُ ليُمجِّدَ الله إلاَّ هذا الأجنبيَّ* وقال له قُمْ وامضِ. إيمانُك قد خلَّصكَ.

يستخدم القديس كيرلُس عبارات تحمل نوعاً من التناقض مثل: الإله غير المنظور أصبح منظوراً، الإله غير المادي أصبح جسداً، الذي لا يمكن حصره ارتضى حدود حياتنا الأرضية، الذي لا يموت يأتي بإرادته إلى موته الخاص. الهدف من هذه العبارات توضيح انه لا يمكننا إدراك الله وتعاليمه بالمنطق البشري إذ يستحيل علينا قياس أعمال الله وكل ما يتعلّق به بحسب ما نفهم نحن البشر لأن الله يفوق إدراكنا وفكرنا وما نعرفه عنه هو ما يكشفه هو لنا.

عن التجسُّد يقول أيضاً كيرلُس ان الله أصبح إنساناً تاماً ولكنه بقي إلهاً تاماً ولم تطغَ طبيعة المسيح الإلهية على طبيعته الإنسانية ولا تناقضت معها ولا أخفتها، كذلك الأمر بالنسبة للإنسان التائب والعائد إلى الله. فالإتحاد بالله لا يلغي فرادة الإنسان بل بالأحرى يحرّره ويقوّيه. كل إنسان له فرادته التي تميّزه عن باقي الخليقة.

أكثر ما شدَّد عليه القديس كيرلُس هو وحدة شخص المسيح. فالطبيعتان الإلهية والإنسانية، رغم اختلافهما، لا تجعلان من الرب يسوع شخصين مختلفين بل يبقى شخصاً واحداً كما ان الإنسان مؤلَّف من طبيعتين روحية وجسدية وهاتان لا تلغيان وحدة الإنسان. لقد ألّف القديس كيرلُس مؤلفاً عنوانه: «حول وحدة المسيح» ولما حاول البعض دراسة هذا الموضوع وصلوا إلى تعليمين مختلفين متطرفين: تعليم لاهوتي سرياني يقول ان هناك ابنين أو شخصين في المسيح وتعليم أبوليناريوس الذي يقول ان الكلمة حلَّ مكان العقل في جسد المسيح. لكن القديس كيرلُس رفض التعليمين الخاطئين وقال ان هناك وحدة سرية في شخص يسوع الذي يملك طبيعتين إلهية وإنسانية تامتين بدون امتزاج أو نقصان أو تشوّش. هذه الوحدة سمحت له بالتكلّم عن بكاء الله وموت الله ووالدة الإله وذلك في إشارة إلى ان ما يتعرّض له الرب يسوع بالجسد لا يؤدي إلى تزعزع الوحدة في شخصه.

كل هذه التعاليم الخريستولوجية التي ذكرناها وتعاليم أخرى كانت موضع نقاش في المجمع المسكوني الثالث الذي انعقد في أفسس عام ٤٣١ وكان للقديس كيرلُس الشرف في بلورة رؤية واضحة للمواضيع الخريستولوجية في ذلك الوقت، وقد بقي أثر كبير لأعماله حتى بعد مماته حيث كانت كتاباته مرتكزاً لقرارات اتُخذت في مجامع مسكونية لاحقة مثل المجمع المسكوني الرابع الذي انعقد في خلقيدونية عام ٤٥١ والمجمع المسكوني الخامس الذي انعقد في القسطنطينية عام ٥٥٣.

رسالة يعقوب: الإعتداد بالذات

بعد أن حَرَّضَنا الرسول يعقوب على الهرب من ملذّات هذا العالم لئلا نصير أعداء لله من خلال خضوعنا للشهوات والملذات، يدعونا لأن لا ندين أو نذمّ اخوتنا في الإيمان. المستكبرون والمعتدّون بأنفسهم يظنون أنهم أفضل من باقي البشر وأعلى منهم شأناً فيذمّونهم، بل ويدينونهم كأنهم أشرار. هؤلاء لا يعلمون أنهم بعملهم هذا يمسّون الشريعة ويتطاولون عليها، ويرفضون سلطان الله

تأمل

«لا تنسوا الإحسانَ والمؤاساةَ فإنَّ اللهَ يرتضي مثلَ هذه الذبائح» (عب ١٣: ١٦).

الحسنة فضل جسيم وهبة من الله تعالى. فبإعطائنا الصدقة نماثل الله تعالى. الصدقة هي العامل الأكبر الذي يجعل الإنسان إنساناً. لذا قال أحدهم في وصف الإنسان: العمل العظيم هو الإنسان، والشيء الثمين هو الإنسان المحسن، وهذه نعمة أعظم من إحياء الموتى.

إن إرواء الظمآن إلى المسيح أعظم من إحياء الموتى باسمه. لأنك إن أتممت الأمر الأول تحسن إلى المسيح وإن أتممت الثاني يكون المسيح قد أحسن إليك. فالجائزة لمن يفعل الخير، لا لمن يتقبله من الآخرين.

بصنعك العجائب تكون مديناً لله، أما بفعلك الرحمة فيكون الله مديناً لك. وقد يتكمل عمل الرحمة عندما نعطيها بطيبة خاطر وسخاء غير متوقعين أجراً ولا شكوراً. فبهذا نحصل على نعمة لأنفسنا لا خسارة. وبغير هذه الصورة لا تكون الحسنة نعمة، فعلى مَن يصنع الخير مع الآخرين

كمشترع وحده، بل ويأخذون مكان الله في الدينونة.

يقول يعقوب: «لا يَذُمَّ بعضُكم بعضاً أيها الإخوة. الذي يَذُمُّ أخاهُ ويدينُ أخاهُ يذُمُّ الناموسَ ويدينُ الناموسَ. وإن كنتَ تدينُ الناموسَ فلست عاملاً بالناموس بل ديَّاناً له. واحدٌ هو واضِعُ الناموسِ القادِرُ أن يُخلِّصَ ويُهلِكَ. فمَن أنت يا مَن تدينُ غيرَكَ» (يع ٤: ١١-١٢). كلام يعقوب موجَّه إلى كل مَن اعتمد باسم الرب يسوع إذ يقول «أيها الإخوة»، وكلنا إخوة للرب ولبعضنا بالمعمودية. لا يجوز للإخوة التكلُّم على بعضهم وذمّ بعضهم بل يليق بنا كإخوة أن نستر ضعفات بعضنا البعض مترفقين بالكل. الخطر في ذمّ بعضنا أن يتحوَّل ذمّنا إلى دينونة للآخرين، لذا نرى الرسول يعقوب لا يفصل بين الأمرين: «الذي يذمّ أخاه ويدين أخاه». ومتى ذممنا اخوتنا وأدنّاهم محمّلين إياهم السوء فنحن نقتلهم معنوياً وبالتالي نخطئ. الأمر الأسوأ هو اننا حين نذمّ وندين إخوتنا فنحن نذمّ وندين الناموس والشريعة. فمن يذمّ أخاه يذم الناموس الذي أوصانا بمحبة القريب كنفوسنا. مَن يتكلَّم على أخيه بدون محبة، مُظهراً برارته الشخصية، يعارض مشيئة الله وشريعته التي تقول: «لا ترتكِبوا جَوْراً في القضاءِ. لا تأخُذوا بوجهِ مسكينٍ ولا تحترِمْ وجهَ كبيرٍ. بالعدلِ تحكمُ لقريبكَ. لا تَسعَ فيَّ الوِشايةِ بين شعبكَ. لا تَقِفْ على دَمِ قريبكَ. أنا الرَّبُّ. لا تُبغِضْ أخاك في قلبكَ. إنذاراً تُنذِرُ صاحِبَكَ ولا تحمِلْ لأجلِهِ خطيئةً. لا تنتقِمْ ولا تَحقِدْ على أبناءِ شعبكَ بل تُحِبُّ قريبَكَ كنفسِكَ. أنا الرَّبُّ» (لاو ١٩: ١٥-١٨). الأخطر بالنسبة ليعقوب هو ان مَنْ يدين الناموس ويرفضه إنما يرفض واضع الناموس وينصّب نفسه رباً ومخلِّصاً وديّاناً مكان الرب الذي هو وحده واضع ناموس الحب والرحمة وقادر أن يخلص وقادر أن يدين، فمَن نحن حتى ندين الآخرين ونسلب الله حقه وعمله.

بعد هذا ينتقل إلى فضيلة أخرى على المسيحي أن يقتنيها قبل أن يواجه الدينونة في المجيء الثاني، وهي فضيلة الإتكال على الله والإستغناء به وعدم الإكتفاء بالذات كما يفعل المتكبرون: «هلُمَّ الآنَ أيُّها القائِلونَ نذهبُ اليومَ أو غداً إلى هذه المدينةِ أو تلك وهناكَ نصرِفُ سنةً واحدةً ونتَّجِرُ ونربَحُ. أنتم الذين لا تعرِفونَ أمرَ الغدِ. لأنَّه ما هي حياتُكُم. إنَّما بُخارٌ يظهرُ قليلاً ثم يضمَحِلُّ. عِوَضَ أن تقولوا إن شاء الربُّ وعِشنا نفعَلُ هذا أو ذاك. وأمَّا الآنَ فإنَّكم تفتخرون في تَعظُّمِكم. كُلُّ افتِخارٍ مثلُ هذا رديءٌ» (يع ٤: ١٣-١٦). الإفتخار بالذات هو التكبُّر بحد ذاته وهو الذي يجعل الإنسان يظن انه هو سيّد نفسه والعالم وكل شيء بتصرفه.

يبدو انه كان من عادة التجار في تلك الأيام أن ينتقلوا إلى مدينة أخرى ليتاجروا ويربحوا. والرسول يعقوب لا يرى عيباً في التجارة ولا يلوم التجار لأجل سعيهم في كسب رزقهم، لكن العيب في أن يعتبروا أنفسهم أسياداً يقررون ما يشاؤون دون الإتكال على الرب، وكل ذلك لأنهم ينسون ان حياتهم البشرية عابرة، هي كالبخار الذي يختفي بعد قليل. يقول يعقوب لنا انه حسنٌ للإنسان أن يدير شؤون حياته اليومية متكلاً على الرب وقائلاً «إن شاء الله»، وانه شرٌ أن يظن الإنسان

أن يبتهج لا أن يحزن.

إن تخفيف أحزان غيرك لا ينطبق مع حزن نفسك! فإذا حزنت لا يكون عطاؤك حسنة وإذا حزنت لإنقاذك غيرك من الحزن يكون عملك هذا قاسياً جداً وعديم الإنسانية. فالأفضل لك ألا تعطي من أن يكون عطاؤك على هذه الصورة.

لماذا تحزن؟ ألأن ذهبك قد نقص؟ إن كان تفكيرك هكذا فلا تعطِ!

لا تنظر إلى هيئة المتسول الرديئة، بل تصوّر ان المسيح داخل بواسطته إلى بيتك. امتنع عن قساوة القلب وعن الكلام البذيء الذي تلوم به طالبي إحسانك مسمياً إياهم منافقين كسالى وغير ذلك من الألقاب المهينة.

أعطِ كسرة الخبز بمحبة بشرية لا بقساوة القلب! أعطِ كمحسن لا كمهين! اطعمه لأنه شحاذ لا لأنه يتفوّه بكلام إبليس الذي يشين حياته. اطعمه لأن المسيح يتغذى بذلك! لا تنظر إلى ابتسام الشحاذ الظاهري بل افحص ضميره تجده يلعن نفسه كثيراً ويتنهد ويأسف لحالته، ولا يظهر حقيقته من أجلك فقط.

القديس يوحنا الذهبي الفم

انه قادرٌ على تدبير أموره بحكمته الخاصة الأرضية التي قد تتحكم بها الشهوات. مهما عظُم شأن الإنسان فإن شوكة صغيرة تركعه. مشكلة الإنسان أنه يظن ان العالم يتمحور حوله وهو «كعشب الحقل الذي يوجدُ اليومَ ويُطرَحُ غداً في التنور» (متى ٦: ٣٠) أو «كزهر الحقل كذلك يزهر لأن ريحاً تعبُرُ عليه فلا يكونُ ولا يعرِفه موضِعُهُ بعد» (مز ١٠٣: ١٦). هذا إنسان هو مثل الغني الذي جمع الغلات الكثيرة وظن انه قادر أن يشبع نفسه لسنين كثيرة، لكن نفسه طُلبت منه في ذات الليلة (لو ١٢: ١٥–٢١). مَنْ خطط للمستقبل وتجاهل الله وأحس أنه بأمان في هذا العالم هو مثل هذا الجاهل. «اطلُبوا أولاً ملكوت اللهِ وبرَّهُ وهذه كلها تُزاد لكم» (متى ٦: ٣٣).

يُنهي يعقوب هذا المقطع بقوله: «فَمَن يعرفُ أن يعملَ حَسَناً ولا يعملُ فذلك خطيئةٌ له» (يع ٤: ١٧). أي من يعرف انه يجب أن يتكل على الرب وأن لا يذم اخوته ولا يبتعد عن الملذات الأرضية فإنه يخطئ. لا يكفي أن تكون نية الإنسان حسنة بل يجب أن يترجمها أفعالاً.

في هدم الكبرياء

باطل كل نسك، كل صوم، كلُ طاعة، كلُ هجر للمقتنيات، كل غزارة تعليم، إذا كان فاقداً تواضع الرأي. فكما أن التواضع هو بدء وكمال الصالحات، كذلك التعاظم بالفكر هو بدء الشرور ونهايتها. وهذا الروح النجس متعدد الأنواع والصور. ولذا فهو يجتهد في أن يتسلط على الجميع كما انه ينتصب فخاً لكل ذي مهنة. فالحكيم يتكبّر بالحكمة والقوي بالقوة، والغني بثروته، والمليح الوجه بجماله، والخطيب بخطاباته، والحسن الصوت بحسن صوته، والحاذق في صنعته بحذقه، والحسن التصرّف بحسن تصرفه. وكذلك ما يطرأ من تجارب للروحانيين: فهو يمتحن المتواضع بالطاعة أي يجعله يفتخر بطاعته، والممسك بالإمساك، والصامت بالصمت، والعديم المقتنيات بهجر القنية، والمتعلّم بسرعة تعلّمه، والمتخشّع بحسن التخشع، والعالِم بالعلم. فالمعرفة الحقيقية مقترنة بالتواضع.

ان روح الكبرياء حريص على أن يزرع في الجميع زؤانه. ان الرب قد عرف رداءة هذا الهوى وأنه يُفسد أي إنسان كائناً ما كان عمله إذا ما تأصّل فيه. لذلك أعطانا التواضع سلاحاً عليه قائلاً: «إذا فعلتم جميع ما أُمرتم به فقولوا اننا عبيد بطالون إنما فعلنا ما كان يجب علينا فعله» (لو ١٧: ١٠) فلِمَ نستدعي إلى نفوسنا الخفّة وفساد الذهن مع ان الرسول يقول: «إن ظن أحد أنه شيء وهو ليس بشيء فقد غرَّ نفسه. فليختبر كل واحد عمله وحينئذ يكون افتخاره من جهة نفسه لا من جهة غيره» (غلا ٦: ٣– ٤) ولِمَ نخادع ذاتنا ويفتخر بعضنا على بعض بأنه شريف من أشراف العالم فنحتقر الأدنى؟ ان الرب يعلم بأن الحظوظ الرفيعة عند الناس مرفوضة لدى الله. أو لِمَ نتعالى على الأضعف فينا لكوننا مُمسكين أي صائمين؟ أو لِمَ نتعظم، لكوننا صامتين، على المجاهدين في الخدمة؟ ان ابن البشر لم يأتِ ليُخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فداء عن كثيرين (متى ٢٠: ٢٨). فإنه ينبغي في كل أمر أن يُقصى التكبّر بالفكر.

القديس أفرام السرياني

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb